﴿*يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [النحل: 111]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مجادلةُ النَّفسِ تنفع إذا اقترنت بعملٍ صالح

لَمّا ذَكَرَتِ الآيات السّابقة طرَفًا مُجْمَلًا من طغيان المشركين، وقسوتهم في تعذيب الضُّعَفاءِ من المؤمنين، ثم ذكَر حال المهاجرين في سبيله، وما تعرَّضوا له من فتنةٍ في سبيل الثَّبات على الدّين، ناسب أن يَذْكُرَ حالَ كلِّ نَفْسٍ يوم القيامة، وأنَّها تأتي مُجادِلَةً على أعمالها، وأنَّ كلَّ مُكلَّف يَنال جزاء ما عَمِلَ في الدُّنيا، فالآية على عادة القرآن في الانتقال من ذِكر أحوال العبادِ في الدُّنيا إلى ذِكر حالهم في الآخرة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُجَادِلُ﴾: أصلُ (جدل): أصلٌ واحدٌ، وهو من باب استحكام الشَّيء في استرسال يكون فيه[1]، أمّا معنى الجَدَل في اللُّغة؛ فقد جاء في (اللِّسان): الجَدَل: اللَّدَدُ في الخُصومة والقُدرةُ عليها، وقد جادله مُجادلة وجِدالًا، وجادله أي: خاصمَه، والاسم: الجَدَل، وهو شِدَّةُ الخُصومة[2]، وترجع جميع تصاريف الكلمة إلى معنى القوَّة والامتناع والشِّدة والإحكام، فيكون مشتقًّا من هذا المعنى الجامع الكلّي، ومِن كلِّ واحدٍ من جزئياته باعتبار ما يشتركان فيه من ذلك المعنى، والمقصودُ بالمُجادَلَةِ في الآية: دِفاعٌ بالقَوْلِ للتَّخَلُّصِ مِنْ تَبِعَةِ فِعْلٍ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جدل).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (جدل).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 302.

2) ﴿وَتُوَفَّىٰ﴾: "الواوُ والفاءُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ: كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى إكْمالٍ وإتْمام، مِنْهُ الوَفاءُ: إتْمامُ العَهْدِ وإكْمالُ الشَّرْطِ، ووَفَى: أوْفَى، فهوَ وفٍّ، ويَقولونَ: أوْفَيْتُكَ الشَّيْءَ، إذا قَضَيْتَهُ إيّاهُ وافيًا، وتَوَفَّيْتُ الشَّيْءَ واسْتَوْفَيْتُهُ؛ إذا أخَذْتَهُ كُلَّهُ حَتَّى لَم تَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، ومِنْهُ يُقالُ لِلْمَيِّتِ: تَوَفّاهُ اللّه"(1)، و"الوافي: الَّذي بَلَغَ التَّمام، يُقالُ: درهم وافٍ، وكيل وافٍ، وأوْفَيْتُ الكيلَ والوزنَ"(2)، "وفَى الكيلُ، ووَفَى الشَّيءُ أيْ: تَمَّ، وأوْفَيْتُه أنا أتمَمته، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ﴾ [الأنعام: 152] ... وأوْفَى الرَّجلَ حقَّه ووَفّاه إيّاه بِمَعْنَى: أكْمَلَه لَهُ، وأعطاه وافيًا، وفي التَّنْزيلِ العَزيزِ: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور: 39]، وتَوَفّاه هوَ مِنْهُ واسْتَوْفاه: لَم يَدَعْ مِنْهُ شَيْئًا، ويُقالُ: أوْفَيْته حَقَّه، ووَفَّيته أجْره، ووفَّى الكيلَ وأوفاه: أتَمَّه"(3)، والمرادُ بالتَّوْفيَةِ في الآية: جَعْلُ الشَّيءِ وافيًا، أي: أعطاه حسابه كاملًا دون نقصان.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يومُ القيامة يومُ مجادلةٍ عن الحقوقِ ويومُ جزاءٍ عادل

تُبيِّن الآية حال النّاس جميعًا يوم القيامة حين تأتي كلُّ نفسٍ تُخاصِمُ عن نفْسِها، وتَحْتَجُّ عنها بما أسلفت في الدُّنيا من خيرٍ أو شرٍّ أو إيمانٍ أو كفرٍ، ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ في الدُّنيا من طاعةٍ ومعصيةٍ، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: يقول: وهم لا يفعل بهم إلّا ما يستحقونه، ويستوجبونه بما قدَّموه من خيرٍ أو شرٍّ، فلا يُجْزَى المُحْسِنُ إلّا بالإحسان ولا المُسيء إلّا بالَّذي أسلف من الإساءة، لا يُعاقَبُ مُحْسِنٌ ولا يُبْخَسُ جزاءَ إحسانه، ولا يُثابُ مُسيءٌ إلّا ثوابَ عمله(4).

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وفى).
(2) الراغب، المفردات: (وفى).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (وفى).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 308.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فصلِ صدر الآية عمّا قبله:

خـطـابُ النّـاس بـعـدل الـجـزاءِ فيه وعدٌ وعيد، وتأكيدٌ للمغفرة والرحمة

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ إمّا "أنْ يكون هذا استئنافًا وتذييلًا بتقدير: اذكُر ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾، وقع عَقِبَ التَّحذير والوعيد، وعيدًا للَّذين أُنذِروا، ووَعدًا للَّذين بُشِّروا، ويجوز أنْ يكون مُتَّصلًا بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل: 110]؛ فيكون انتصابُ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ على الظَّرفية لـ ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل: 110]، أيْ: يغفر لهم، ويرحمهم يومَ القيامة بحيث لا يجدون أثرًا لذنوبهم التي لا يَخلو عنها غالِبُ النّاس، ويجدون رحمة مِن الله بهم يومئذ، فهذا المعنى هو مقتضى الإتيان بهذا الظَّرف"[1].

والأنسب أنْ يكون قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ استئنافًا وابتداءً، شروعًا في بيان عدل الله تعالى يوم القيامة، بعد بيان أحوال أعمال النّاس في الدُّنيا.

بلاغةُ البدء بالظَّرف:

ذِكـــرُ الـقـيـامـة واجـبٌ في أعناق الذّاكرين

قُدِّم الظَّرف في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ لشدَّة أهوالِ ذلك اليوم؛ لِما في التَّقديم مِن التَّنبيه على العناية بالمُقدَّم؛ كما قال سيبويه: "كأنَّهم إنَّما يُقَدِّمونَ الَّذي بيانُه أهمُّ لهم، وهم بِبَيانه أعنَى، وإنْ كانا جميعًا يُهِمّانِهم ويَعنيانِهم"[2]؛ ففي تقديم الظَّرف عناية به وإيقاظ للغافلين، كأنَّه قال: انتبهوا يوم تأتي كلُّ نفسٍ تُجادِلُ عن نفسِها؛ فإنَّه يومٌ عظيمٌ.

فائدةُ اختيارِ مفردة الإتيان:

المقصود بالفعل ﴿تَأْتِي﴾ "أيْ: تَحْضُرُ"[3]، وقد آثرَ النَّظْمُ الكريم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 301.
(2) سيبويه، الكتاب: 1/ 31.
(3) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 294.

مفردة ﴿تَأْتِي﴾ دون تجيء؛ لأنَّ "جاء وأتى يستويان في الماضي، ويأتي أخفُّ من يجيء في المضارع، وكذا في الأمر جيئوا بمثله أثقل مِن فأتوا بمثله، ولم يَذكُرِ اللّه تعالى إلّا ﴿يَأْتِي﴾ [البقرة: 258] و﴿يَأْتُونَ﴾ [التوبة: 54]، وفي الأمر ﴿فَأْتِ﴾ [البقرة: 258]، ﴿فَأْتِنَا﴾ [الأعراف: 70]، ﴿فَأْتُواْ﴾ [البقرة: 23]؛ لأنَّ إسكان الهمزة ثقيل لتحريك حروف المدِّ واللّين، تقول جيء أثقل مِن ائْت"[1]، فمفردة الإتيان هنا تحكي بِخفَّتها سرعة الإتيان، وخفَّتها إلى ميدان الحساب، فالإتيان سيكون أيسرَ ممّا تتوقَّع عقول النّاس.

أهل الموقف يَخِفّون للحساب في إتيان سريع

نكتةُ التَّعبير بالمضارعة ﴿تَأْتِي﴾:

يتَّسق عطاءُ صيغةِ المضارَعة في الفعل ﴿تَأْتِي﴾ مع ذِكر الظَّرْف ﴿يَوْمَ﴾، وأفادتِ المضارَعة تصوير ذلك المشهد لاستحضاره في نفوس المخاطَبين، فالآية تُخبر عن إتيان النّاس يوم القيامةِ، والإتيان مُسْنَدٌ لكلِّ نَفْسٍ وحدها، فعلى كلِّ نفسٍ أن تستحضر إتيانَها وتتصوَّره كأنَّه قائمٌ وحده، ومن لم يتأمَّل ذلك الإتيان الَّذي سيكون لجسده ونفسه وروحه، فما كسب من تدبُّر الآية إلّا تحريك اللِّسان.

على المُتَدَبِّر استحضار إتيانه يوم القيامة بانفرادٍ

فائدةُ استعمال ﴿كُلُّ﴾ دون جمع النَّفْس:

استعمال النَّظم الكريم كلمة ﴿كُلُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾، وذلك لإفادة عموم هذين الحدَثين: إتيان كلِّ نَفْسٍ للحساب، ومجادلة كلِّ نَفْسٍ عن نفسها، "فيجادل المؤمن والكافر، وجِدالُه بالكذِب والجَحَد، فيشهد عليهم الرُّسُلُ والجوارح، فحينئذ لا ينطقون"[2]، كلٌّ مشغولٌ بنَفْسه، ليس له فراغ إلى غيره، فلفظ ﴿كُلُّ﴾ شمل المؤمنين والكافرين، ولو قال: (يوم تأتي النفوس) لَتوُهِّمَ أنَّ المُراد نفوس الكافرين.

دفعُ تَوَهُّمِ حَصْرِ المُراد بالنَّفْس الكافرة

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 80.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 601.

سرُّ اختيارِ لفظ (النَّفْس) دون ما يُقاربها:

النَّفس أصلُ كلِّ خيرٍ أو شرٍّ في السُّلوك البشريِّ

آثرَ النَّظْمُ الكريم لفظَ النَّفْس دون مرادفاتها؛ وذلك لأنَّ النَّفْس هي أصلُ الشَّهوات والخيرات في الاستعمال القرآني، فالقرآن ذكَر النَّفس الأمّارَةَ بالسّوءِ، واللَّوّامَةَ، والمُطْمَئِنَّةَ، فكان من المُناسِبِ أنْ يذكُر النَّفس التي تشمل هذه الأنواع جميعها، فيقع الاستغراق، كما أنَّ النَّفْس هي الباعث على العمل شرًّا وخيرًا، فكان ذِكرُ النَّفْس لمحًا لأصل العمل لدى الإنسان، فكما أنَّ النَّفْس هي الباعث على العمل في الدُّنيا، فهي الباعث على العمل للنَّجاةِ في الآخرة.

توجيه تأنيث فعل ﴿تَأْتِي﴾ و﴿تُجَٰدِلُ﴾:

تأنيث الأفعال لِلَحْظِ المعاني لا الألفاظ

ورد في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ فِعلا المؤنَّث: ﴿تَأْتِي﴾، ﴿تُجَٰدِلُ﴾؛ فأُنِّث الفعلان لمناسبة تأنيث النفس، أمّا ذِكر لفظ ﴿كُلُّ﴾ "فجُمع على المعنى"[1]؛ إذ هو لِمجرَّد إفادة العموم؛ والتَّقدير: "كلُّ ذي نَفْسٍ، ثمَّ أُجْري الفعل على المضاف إليه المذكور، فأتت العلامة"[2]، أي: علامة التَّأنيث.

نكتةُ التَّعبير بصيغةِ المضارع ﴿تُجَٰدِلُ﴾:

تصوير المجادلة بيانٌ لحال النَّفْس الضَّعيفة الذَّليلة

جملة "﴿تُجَٰدِلُ﴾ في موضع رفع على النَّعت لـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾"[3]؛ أو "حالٌ مِن ﴿كُلُّ﴾، وجازت الحالُ من النَّكرة؛ لأنَّها مُضافَةٌ"[4]، وإيثارها صيغة مضارعة يُقرِّر في تلك الصِّفة لزومَها للمنعوت، وتطاولَها عليه تطاولًا يُناسب تطاوُل يوم القيامة على النّاس، كذلك تنهض صيغة المضارعة حالًا في ﴿تُجَٰدِلُ﴾ باستحضار صورة تلك النُّفوس، وهي ﴿تُجَٰدِلُ﴾ وتكابد في الْتماس أدلَّة براءةٍ، تنجّيها من تُهَمٍ لا تُعَدُّ، وتصوِّر حالها لدرجة أنَّ "كلَّ أحد مِن الأنبياء وغيرهم

(1) الخراط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/ 600.
(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/ 426.
(3) الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 4/ 149.
(4) الخراط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/ 600.

يقول: نَفْسي نَفْسي، وهذا ليس بجدال ولا احتجاج، إنَّما هو مجرَّد رغبة"[1] في النَّجاة.

نكتةُ اختيارِ ﴿تُجَادِلُ﴾ دون (تُدافِعُ):

كنايةٌ عن حال النَّفْس بطلب النَّجاةِ يوم القيامة

آثرَ النَّظْمُ الكريم مفردةَ الجدال دون الدِّفاع؛ لأنَّ الدِّفاع دون الجدال في شدَّة المُحاجَجَةِ؛ إذ إنَّ الجدال مِن فتْلِ الحَبْل وإحكام جَدْله؛ فيوحي بالاستماتة في الاستمساك بدليل البراءة - حتى وإنْ كان واهيًا -، ويُلِحُّ على إعادة المحاولة مرّات ومرّات، أمّا الدِّفاع فمفردة توحي بقوَّة دليل المدافِع، وثقته في براءته، والمقصود الأوَّل دون الآخر؛ فالمُراد من إيراد هذه المفردة بيانُ حال الضَّعف الشَّديد والخوف الشَّديد معًا ممّا يُشاهده الإنسان في أهوال القيامةِ، فيلجأ إلى المُجادلةِ، لعلَّه ينجو عند الله تعالى.

ولا ريب في أنَّه ليس المُراد بالجدال في هذا المقام ما نعرفه من جدال الدُّنيا من عنفوان المجادِل، ومغالطته، وغير ذلك، إذ المقام جَلَلٌ؛ ولذلك رأى الماتريديُّ عدَمَ تعيين المُراد بالمُجادلة، فقال: "وذلك كلُّه مُجادَلَتُهُم أنفُسهم، أو أنْ يُقال: ﴿تُجَادِلُ﴾ لكن لا يُفَسَّر ما تلك المُجادَلَةُ؛ لأنَّ الله تعالى ذكَر المُجادَلَةِ، ولم يذكُر ما المُجادَلَةُ؟"[2]، ولذلك فالأولى أنْ يكون ذِكْرُ المُجادَلَةِ مِن قبيل الكناية عن حال النَّفْس الطّالبة الفوز يوم العَرْضِ.

نكتةُ إضافةِ النَّفْسِ للنَّفْس:

النَّفسُ المضافةُ الإنسانُ والمضافُ إليها ذاتُه

لِسائلٍ أنْ يسأل عن معنى إضافة النَّفْس إلى النَّفْس في قول الله تعالى: ﴿عَن نَّفْسِهَا﴾، فقد "جازتْ إضافة النَّفْس إلى النَّفس - ومِن شرط المُتَضايِفَيْنِ أنْ يكونا مُتغايرين - أنَّ المُراد بالنَّفس الأولى

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/ 426.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/ 583.

الإنسان، وبالثّانية ذاته"[1]، أيّ: "يأتي كلُّ أحدٍ يُدافع عن ذاته، أيّ: يُدافع بأقوالِه ليدفع تبِعات أعماله؛ ففاعل المُجادَلَةِ، وما هو في قوَّة مفعوله شَيْءٌ واحِدٌ، وهذا قريب من وقوع الفاعل والمفعول شيئًا واحدًا في أفعال الظَّنِّ والدُّعاء، بكثرة، مثل: أراني فاعلًا كذا، وقولهم: عَدِمتَني وفَقَدْتَني"[2].

"ولم يَقُلْ: تُجادِلُ عنها؛ لِئَلّا يتَّحد الضَّميران: فاعلًا ومفعولًا، مع أنَّ المُظهَرَ السّابق لفظُ النَّفْس"[3]، فيومئذٍ "كلُّ أحدٍ لا يُهمُّه إلّا نفسَه، فهو مُخاصِمٌ ومحتجٌّ عن نَفْسِه، لا يتفرَّغ إلى غيره؛ وذلك أنَّ لِجهنم زَفرةً يقع كلُّ أحدٍ جاثيًا على ركبتيه"[4]، فـ "النَّفْس الأولى هي: الجملةُ (أيّ: مجموع الإنسان)، والثّانية: عينها وذاتها، فكأنَّه قيل: يوم يأتي كلُّ إنسان يُجادل عن ذاته لا يهمُّه شأنُ غيره، كلٌّ يقولُ: نَفْسي نَفْسي"[5].

دلالة الواو في: ﴿وَتُوَفَّىٰ﴾:

حالُ النُّفوس في المجيء المُجادَلَةُ؛ وحالُها في تَوْفِيةِ الأعمال العدالةُ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ عاطفة على قوله تعالى: ﴿تَأْتِي﴾، فهما حدَثان ذكرتهما الآية، الإتيان، والتَّوْفِيَةُ، تَعَلَّقَ بالأوَّل ذِكْرُ المُجادَلَةِ، وتَعَلَّقَ بالآخر ذِكْرُ عدَمِ الظُّلم، والتَّوْفِيَةُ إعطاء الشَّيء وافيًا دون نقصانٍ، والمعنى: "توفَّى كلُّ نفسٍ جزاء ما عملت من غير بخْسٍ ولا نُقْصان"[6]، فـ "لا يُنقَصون من حسناتهم، ولا يزدادون على سيئاتهم، وهذه الآية تَرُدُّ على المعتزلة؛ لأنَّهم يقولون بالتَّخليد لصاحب الكبيرة، وقد أخبر تعالى أنَّه توَفَّى كلُّ نفسٍ ما عملت من سوء، ولا توَفَّى ما عَمِلَتْ من الخيرات والطّاعات"[7].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 374.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 302.
(3) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/ 489.
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 13/ 213.
(5) الزمخشري، الكشّاف: 2/ 638، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 278.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 278.
(7) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/ 583.

نكتةُ بناءِ فعل ﴿وَتُوَفَّىٰ﴾ للمفعول:

بَنى النَّظمُ الكريم الفعل ﴿وَتُوَفَّىٰ﴾ إلى مفعوله ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ وحذف الفاعل؛ لإظهار فعل التَّوْفيَةِ، فهو مقصود الجملة، وتوفير عناية المتلقي على الفعل لا الفاعل، والمعنى أنَّ "ثوابها غيرُ مُنْتَقَصٍ"[1].

العدل شعار يوم القيامة؛ فلا يَظْلِمُ أحدٌ أحدًا

وفي هذا الفعل "بيانٌ لِمَظهرٍ من مظاهر عَدْل اللّه تعالى في قضائه بين عباده، أيْ: وفي هذا اليوم تُعْطَى كلُّ نَفْس جزاء ما عملته من أعمالٍ في الدُّنيا وافيًا غير مَنْقوصٍ، بلا ظُلْمٍ أو حَيْفٍ أو مَيْل عن العدل والقسطاس، ولن يَنْفَعَ نَفْسًا مُجادَلَتُها عن ذاتها، واعتذارها بالمعاذير الباطلة، وإنَّما الَّذي ينفعها هو عملُها"[2]، وفي الفعل ﴿وَتُوَفَّىٰ﴾ "إعلالٌ بالقَلْب؛ إذ أصلُه: توَفَّيَ بياء في آخره؛ فلمّا جاءت الياء متحرِّكة بَعد فتحٍ قُلِبَتْ ألفًا، ورُسِمَت برسم الياء لأنَّها خامسة"[3].

بلاغةُ الإظهارِ في عبارة ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾:

ما يقتضيه الظّاهر أنْ يكون نظمُ الكلام: (يوم تأتي كلُّ نفس تُجادل عن نَفْسِها وتوَفَّى ما عَمِلَتْ)، لكنَّ النَّظم جاء على مقتضى الحال دون الظّاهر، فأظهر نائب الفاعل ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ وذلك "الإظهار في مقام الإضمار لزيادة التَّقرير، وللإيذان باختلاف وقْتَي المُجادَلَةِ والتَّوْفيَةِ، وإنَّ كانتا في يومٍ واحدٍ"[4]، وكذلك أوثِر الإظهار؛ "لِتكون الجملة مُستقلَّة، فتجري مجرى المَثَل"[5].

ما تَتَوَهَّمُهُ الأفهام يدفعه بديع نظم القرآن

كما أنَّ إظهار ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ تأكيدٌ للعموم بعد العموم، فعموم المُجادَلَةِ للنُّفوس، كما أنَّ عموم التَّوْفيَةِ للنُّفوس، ولحساسية الأوهام

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 13/ 214.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 245.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 400.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 476.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 302.

التي تطرأ على الأفهام، أَظهَر ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ كي يُعْلِمَ أنَّ النّاس جميعًا سواسية في ميزان العدل والفضل.

نوعُ ﴿مَّا﴾ ودلالتها في جملة ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾:

قليلُ الأعمالِ وكثيرُها حاضرٌ يوم الحساب

﴿مَّا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ "حرفٌ مصدريٌّ"(1)، أيْ: "ثوابَ ما عَمِلَتْ، أو جزاءَ ما عَمِلَتْ، فحُذِف المضاف"(2)، "أيْ: جزاءَ ما عَمِلَت، بطريق إطلاقِ اسمِ السَّببِ على المُسبَّب؛ إشعارًا بكمال الاتِّصالِ بين الأجزية والأعمال"(3)، وإيثار ﴿مَّا﴾ دون أنْ يقولَ: (وَتوَفَّى كلُّ نَفْس أعمالها)؛ إرادة إظهار العموم، فجميع أعمال العباد داخلةٌ في النَّظم، ولو قال: (أعمالها) لتوُهِّمَ أعْمالٌ خاصَّةٌ.

فائدةُ ذِكر مفردة العمَل دون لفظ التَّقديم:

النَّفْس البشريَّة تُحاسَبُ بمعيارِ الحـقِّ لا فيما تَعْتَقِدُ أنَّه حقٌّ

آثرَ النَّظْمُ الكريم مفردة العمل دون التَّقديم، فقال: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ ولم يَقُلْ: (وتوفَّى كلُّ نَفْسٍ ما قدَّمت)، كما قال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: 182]؛ وذلك لأنَّ المقصودَ بهذا السّياق ذِكر الأعمال التي قام بها الإنسان في الدُّنيا، ويدخلُ فيها ما يظنُّه خيرًا وما يظنُّه شرًّا، أمّا دلالةُ التَّقديم ففيه مَلْحَظُ تقديم الأعمال مع إرادة الثَّواب عليها فيما يَظُنُّ العَبد أنَّه يصنع خيرًا، وقد يكون في غور الباطل، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: 104].

دلالةُ واو الحال:

تَوْفِيَةُ العبادِ أعمالَهم وانتفاء الظُّلم في يوم الحساب

الواو في جملة ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ "واو الحال، فحال العباد حين يوَفَّون حسابهم أنَّهم غير مظلومين، وإنْ كان ما سبق مِنَ الآية يُغني في بيان معنى العدل ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾، فتَوْفِيَةُ

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 399.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 13/ 214.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 144.

العباد أعمالهم تَوْفيَةً كاملة تَدُلُّ على أنَّ أحدًا مِن الخَلْق لم يُظْلَم، ولكن جاء التَّصريح بِنَفْي الظُّلم زيادةً في التَّأكيد على عدل الله ﷻ، والتَّأكيد على عدل الله ﷻ في الجزاء يَدُلُّ على شِدَّة الوعيد للمرتدّين، وعظيمِ البشارة للمؤمنين"[1].

غرضُ استعمال الضميرِ المنفصل في جملة الحال:

كلُّ عبدٍ مخصوصٌ بدفع الظلم عنه جملةً وتفصيلًا

ضميرُ الجمعِ المنفصلُ (هم) في جملة ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يُقَرِّرُ نفيَ الظُّلم عنهم على العموم، بعد نفيِه عنهم على الخصوص في قوله تعالى ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾، إذ فُهِم منه أنَّ كلَّ عبدٍ من البشَر مخصوصٌ بنفي الظُّلم عنه، فجاءت جملة الحال تأكيدًا في الوعد بدفع الظُّلم؛ لأنَّه لا يُظلَم أحدٌ عند الله تعالى، فإنْ أكرمه ورحمه وعفا عنه، وإلّا وفّاه حقَّه غير منقوصٍ الحسنات ولا زائد السَّيئات، ولم يَظْلِمهُ أَلْبَتَّةَ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: 49].

وجه عَودِ ضمير الجمعِ على لفظ الفرد:

النَّظم قائمٌ على ربطِ المعاني بِلِحاظِ المباني

عاد الضَّميران في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ "إلى كلِّ نَفْس بحسب المعنى؛ لأنَّ كلَّ نَفْسٍ تَدُلُّ على جمع مِنَ النُّفوس، وزيادة هذه الجملة للتَّصريح بمفهوم ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾؛ لأنَّ تَوْفيَةَ الجزاء على العمل تستلزم كون تلك التَّوْفيَةِ عدلًا، فصَرَّحَ بهذا اللّازِم بطريقةِ نَفْيِ ضِدِّهِ - وهو نفي الظُّلم عنهم -، وللتَّنبيه على أنَّ العدل من صفات الله تعالى، وحصل مع ذلك تأكيد المعنى الأوَّل"[2].

نكتةُ مجيء المُسْنَدِ الفعليِّ منفيًّا:

القيامةُ عدلُ الله فيها باقٍ وفضله قائم

جاء الخبَر فعلًا منفيًّا في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وذلك لبيان أنَّ نفيَ الظُّلم عنهم مستمرٌّ في القيامة كلِّها، ابتداءً

(1) القدّومي، التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، ص: 223.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 303.

وانتهاءً، فإنَّ عُنْوانَ ذلك اليوم عدل باقٍ وفضل قائم، و"الظُّلم: الاعتداء على الحقِّ، وأُطلِقَ هنا على مجاوزة الحدِّ المُعيَّن للجزاء في الشَّرِّ والإجحاف عنه في الخير؛ لأنَّ الله تعالى لَمّا عَيَّن الجزاء على الشَّرِّ، ووعد بالجزاء على الخير، صار ذلك كالحقِّ لِكُلِّ فريقٍ، والعِلْمُ بمراتب هذا التَّحديد مُفَوَّضٌ لله تعالى"[1]، فـ "لا يُنْقَصونَ من أجورهم مثقال ذرَّة"[2].

نكتةُ بناء الفعل للمفعول ﴿يُظْلَمُونَ﴾:

إذا أشرق نور الحقِّ غابت ظُلمَةُ الظُّلم

جاء الفعل ﴿يُظْلَمُونَ﴾ مبنيًّا للمفعول في جملة ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ الحُكْم يوم القيامة ليس إلّا لله تعالى، والله تعالى صاحب العدل المُطلَق، المنزَّه عن كلِّ ظُلم؛ وبِناءً على هاتين المسلَّمَتَيْن، فإنَّ الظُّلْمَ لا يَتَأتَّى في يوم القيامة أصلًا؛ ويَختفي ويَغيب وجود الظُّلْم تمامًا؛ إذ لا فاعل له أصلًا، وإذا عُدِم فاعلُه لم يتأتَّ إلّا بناؤه للمفعول، فقيل: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ﴾ [غافر: 17]، وهذا أبلَغ في المديح وأجزل في الحَمد.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجِدالُ والحِوارُ:

الجدال يَغْلِبُ في الخصومات والحوار في مُطْلَقِ مراجعة الكلام

يَخْتَصُّ الجدال بما كان عن شِدَّةٍ وعِنادٍ في طلَب أخذ المطلوب معنويًّا كان أو ماديًّا، والجِدالُ مُطْلَقٌ في المُخاصَمَة، ومنه قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النساء: 109]، وأمّا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ [هود: 74]، فقيل إنَّه قال للملائكة: بأيِّ شيءٍ استحقّوا عذاب الاستئصال؟

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 303.

(2) ابن عجيبة، المديد في تفسير القرآن المجيد: 3/ 168.

فسُمّي ذلك السؤالُ المستقصي جدالًا؛ من رِقَّةِ قَلْبه، وعظيم رأفته عليه السلام[1].

و"المُحاوَرَةُ والحِوار: المُرادَّة في الكلام، ومنه التَّحاوُر، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: 1]، وكلَّمته فما رَجَعَ إليَّ حَوارًا، أو حَويرًا أو مَحورَةً، أيْ: جوابًا، وما يعيش بأحور، أيْ بعقلٍ يَحورُ إليه"[2]، ويغلب استعمال الحِوارَ في مُطْلَقِ التَّراجُعِ في الكلام، مع شيءٍ من اللّين والهدوء.

الجِدالُ والحِجاجُ:

غـرضُ الجـدال الإلـزام، وغرض الحِجاجِ إظهار الحُجَّةِ

"إنَّ المطلوب بالحِجاج هو ظُهورُ الحُجَّةِ، والمطلوب بالجِدالِ: الرُّجوع عن المذهب، فإنَّ أصلَه من الجَدْل، وهو شِدَّةُ الفَتْل، ومنه الأجدل؛ لِشِدَّةِ قوَّتِه من بين الجوارح، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَالَنَا﴾ [هود: 32]؛ وذلك أنَّ دأب الأنبياء عليهم السلام كان ردعَ القوم عن المذاهب الباطلة، وإدخالَهم في دين الله تعالى بِبَذْل القوَّة، والاجتهاد في إيراد الأدلَّة والحُجَج"[3].

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 158.
(2) الراغب، المفردات: (حور).
(3) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 158.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»